مرحلة تأسيس القاعدة الصالِحة

بعد استعراض مبادئ الشورى، والعدل، والْحرِّية الفرديّة والعامّة، ضمن نطاق الدين، والشريعة، وأثرها على نهضة الأمم، وتقدُّمها، نبحث في تأسيس القاعدة الصالحة، الْمؤسَّسة على أساس روحيّ عميق ومتين.

إنّ الْمجتمعات الإنسانية الناجحة تقوم على ثلاث قواعد، قويّة، ثابتة، يدعم بعضها بعضاً، وهي كما قدَّمنا:

١ـ القاعدة الرُّوحيّة.

٢ـ القاعدة الاقتصادية.

٣ـ القاعدة العسكرية.

وهذه القواعد الثلاث، بيَّنها اللهُ سبحانه وتعالى للنّاس، في آية واحدة، وفي أقلِّ عددٍ من الكلمات، منذ بدء الرِّسالة الإسلاميّة، في الفترة المكيَّة الأولى، حيث قال عزَّ من قائل: (إنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ، وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ، وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ، فَاقْرَأُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ. عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى، وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ، وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَاقْرَأُوا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ، وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ، وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً، وَما تُقَدِّمُوا مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً، وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ، إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.) (المزَّمِّل ٧٣/٢٠)

إذا حلَّلنا هذه الآية الكريمة وتأمَّلنا فيها، نجد أنَّ:

١ـ القاعدة الرّوحيَّة تظهر في العبارات التالية من الآية الكريمة: (إنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ...) و(فَاقْرَأُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) و(وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ، وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً، وَما تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ...)

٢ـ القاعدة الاقتصادية تظهر في العبارة التالية من الآية الكريمة التي تحثُّ على العمل والكسب: (وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ)
٣ـ القاعدة العسكرية تظهر في العبارة التالية من الآية الكريمة: (وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ.)

واتَّبع الرَسول الكريم صلَّى الله عليه وسلَّم هَدْيَ القرآن الكريم، وعمل على تأسيس القاعدة الرُّوحيَّة بجدٍّ واجتهاد، رغم كلِّ المعوِّقات، والمحاولات اليائسة، من قِبَل كفّار قريش لقتل الرسالة في مهدها، وفي نفس الوقت، عمل على بناء القاعدة الاقتصادية، لتوفير المال اللازم، لإطعام الجياع من المسلمين، وتحرير المستعبدين، والمستضعفين منهم من عبوديّة، وظلم أسيادهم من الكفّار، كما فعل أبو بكر الصِّدّيق رضي الله عنه حيث حرَّر عدداً لا بأس به من العبيد، من بينهم بلال بن رباح رضي الله عنه. لكنّه صلّى الله عليه وسلّم أجَّل بناء القاعدة العسكرية حتى يتوفَّر له العنصر البشري الكافي للوقوف أمام القوَّة العسكرية لقريش، وباقي القبائل القويّة المعادية للإسلام والمسلمين، ولم يتمَّ له ذلك إلاّ بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة، حيث بنى أقوى قوّة عسكرية ضاربة في تاريخ الجزيرة العربية، هذه القوّة التي استطاعت فيما بعد تحطيم جبروت قريش وكل القبائل المتحالفة معها، وإدخالها في حظيرة الإسلام والإيمان.

ولا قيام لأيٍّ من هذه القواعد الثلاث لوحدها دون القاعدتين الأخريين، لأنّ الدّين والدّنيا في الإسلام، عنصران مكمِّلان لبعضهما البعض، كما علّمنا الله سبحانه وتعالى، حيث قال: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ، وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ، وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ.) (القصص ٧٧/٢٨)

والمحاورة التالية بين يحيى بن معاذ الرازي ورجل لامَهُ على حبّه للدنيا تؤيِّد دعوانا أنّ الدنيا والآخرة توأمان لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض، بمعنى آخر، أنّ الروحانيات والماديّات عناصر متداخلة لبناء حياة أفضل في هذه الدنيا، حياة يسودها العدل لجميع أفراد الأمّة.

"روى بعض الفضلاء، أنّ رجلاً قال ليحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه: إنَّك لتحبّ الدّنيا.

فقال يحيى للرجل: أخبرني عن الآخرة، أبالطاعة تُنال أم بالمعصية؟

قال: لا، بل بالطاعة.

قال يحيى: فأخبرني عن الطاعة، أبالحياة تُنال أم بالممات؟

قال: لا، بل بالحياة.

قال يحيى: فأخبرني عن الحياة، أبالقوت تُنال أم بغير القوت؟

قال: لا، بل بالقوت.

قال يحيى: فأخبرني عن القوت، أمِنَ الدنيا هو أم من الآخرة؟

قال: لا، بل من الدّنيا.

قال يحيى: فكيف لا أحبُّ دنيا قُدِّرَ لي فيها قوتٌ أكتسب به حياةً أدْرِكُ بها طاعة أنال بها الآخرة؟

فقال الرجل: أشهد أنّ ذلك معنى قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: إنَّ مِنَ البَيان لَسِحْراً."[٢٧٨]

وعن محمد بن سيرين، قال: "أتى رجل معاذ بن جبل ومعه أصحابه يسلّمون عليه ويودِّعونه، فقال: "إنّي مُوصيك بأمرين إن حفظتهما حُفِظْتَ، إنّه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا، حتى ينتظمه لك انتظاماً، فتزول به معك أينما زُلْتَ."[٢٧٩]

لهذا عمل الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم مهتدياً بهدي الوحي الإلهيّ على تأسيس القاعدة الروحية للمجتمع الإسلامي قبل بناء القاعدتين الاقتصادية والعسكرية. كذلك لم يقم صلّى الله عليه وسلّم ببناء الدولة الإسلامية ويتولّى حكمها إلاّ بعدما ربَّى جيلاً صالحاً من الناس لمدّة ثلاثة عشر عاماً في مكّة، وثلاثة أعوام في المدينة قبل الهجرة، عندما أرسل الشاب، الصغير، العظيم، مُصْعَب بن

٢٧٨ــ الشرواني، حديقة الأفراح، ص ص ٥٠٤-٥٠٥.

٢٧٩ــ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١، ص ٤٩٦.

عُمَيْر رضي الله عنه، إلى المدينة لتعليم الناس هناك، القرآن، ومبادئ الإسلام، وتهيئة الجوّ الإسلاميّ الصالح لحكم الرسول صلّى الله عليه وسلّم.[٢٨٠]

عندما نعرف شيئاً عن حياة مصعب بن عمير رضي الله عنه قبل أن يُسْلِم، نعرف معنى التربية الروحية وأثرها في حياة الفرد والمجتمع.

٢٨٠ــ ابن هشام، السيرة النبوية، م ١، ص ص ٤٢٨-٤٢٩.

مُصْعَب بن عُمَيْر

مصعب بن عمير هذا كان: "فتى مكّة شباباً وجمالاً وسبيباً (غنىً)، وكان أبواه يحبّانه، وكانت أمُّه مليئة، كثيرة المال، تكسوه أحسنَ ما يكون من الثياب وأرَقَّه، وكان أعطر أهل مكّة، يلبس الحضرميَّ من النّعال.

فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يذكره ويقول: ما رأيت بمكّة أحداً أحسن لِمَّة، ولا أرَقَّ حُلَّة، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير.

فبلغه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدعو إلى الإسلام في دار أرقم بن أبي الأرقم، فدخل عليه، فأسلم، وصَدَّق به، وخرج، فكتم إسلامه خوفاً من أمّه وقومه، فكان يختلف إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سرّاً، فبَصُرَ به عثمان بن طلحة يُصَلّي، فأخبر أمَّه وقومه، فأخذوه، فحبسوه، فلم يزل محبوساً حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى، ثمّ رجع مع المسلمين حين رجعوا، فرجع متغيِّر الحال قد حَرِجَ، يعني غَلُظ، فكفَّت أمُّه عنه من العَدْل.

وقال عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مرّة: (الحمد للهِ لَيَقْلِبُ الدّنيا بأهلها، لقد رأيت هذا، يعني مُصعباً، وما بمكّة فتىً من قريش أنعم عند أبويه نعيماً منه، ثمّ أخرجه من ذلك الرّغبة في الخير في حبّ الله ورسوله.)[٢٨١]

وعن خَبّاب، قال: هاجرنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نبتغي وجهَ الله، فوجب أجرنا على الله عزَّ وجلَّ. فمِنّا من مضى، ولم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير، قُتِلَ يوم أحُد، فلم نجد له شيئاً نُكَفِّنه فيه إلاّ نَمِرة (شَملة مخطّطة) كُنّا إذا غطَّينا بها رأسه، خرجت رجلاه، وإذا غطَّينا رجليه، خرج رأسه،

٢٨١ــ ابن سعد، الطبقات، م ٣، ص ص ١١٦-١١٧.

فأمرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن نغطي بها رأسه، ونجعل على رجليه إذْخِراً (عشبة طيّبة الرائحة).[٢٨٢]

أليست "الرغبة في الخير في حبّ الله ورسوله" هي التربية والقاعدة الروحيّة الّتي أسّس الرسول صلّى الله عليه وسلّم عليها المجتمع والدّولة الإسلاميّة الأولى التي هزَّت العالم وقلبته من عالم ماديّ صِرْف إلى عالم روحاني ماديّ تسامى في روحانيته حتى بلغ عنان السماء بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الإنسانية جمعاء منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها من البشر؟

بمثل مصعب بن عمير من الشباب المؤمن المجاهد أقام الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم أوّل دولة إسلاميّة على وجه هذه الأرض، هذه الدّولة التي حملت مشعل الدّين، والنور، والحريّة والعدل، والمساواة، إلى العالم أجمع.

٢٨٢ــ ابن الجوزي، صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري، دار الوعي، حلب، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ج ١ ، ص ٣٩٣.

أبو بكر الصِّدِّيق

إنّ خير مثال نقدِّمه على التربية الروحيّة وأثرها على الإنسان بالإضافة إلى مصعب بن عُمَيْر هو، أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، الّذي أنفق كلّ أمواله في سبيل الله، وإذا عرفنا مدى ثروة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه قبل أن يُسلِم، نعرف كم أثّرت التربية الدينية الروحية في أبي بكر الصدِّيق والجيل الأوّل، الّذي دعاه الرسول صلّى الله عليه وسلّم بخير القُرون.

رُويَ عن عائشة، أمّ المؤمنين رضي الله عنها: "أنّ أبا بكر رضي الله عنه أسلم يوم أسلم، وله أربعون ألف دينار ـ وفي رواية: أربعون ألف درهم ـ فأنفقها على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال:"أسلم أبو بكر رضي الله عنه يوم أسلم، وفي منزله أربعون ألف درهم، فخرج إلى المدينة في الهجرة وما له غير خمسة آلاف، كلّ ذلك ينفقه في الرّقاب والعَوْن على الإسلام."

وأخرج ابن عساكر عن عائشة رضي الله عنها: "أنّ أبا بكر أعتق سبعة كلّهم يُعَذَّب في الله."

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (ما نَفَعَنِي مالٌ قطُّ، ما نَفَعَنِي مالُ أبي بَكْرٍ.)

فبكى أبو بكر، وقال: (هَلْ أنا وَمالي إلاّ لَكَ يا رَسُولَ اللهِ!)"[٢٨٣]

وفضائل ومناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه أكثر ممَّا تحصى، وسنرى الكثير منها في ثنايا هذا الكتاب. لقد ذكرنا هذه المنقبة للصِّدِّيق رضي الله عنه لأنها تناسب المقام.

٢٨٣ــ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٦.

صُهَيْب بن سِنان

مثال آخر على تأثير التربية الروحية في الناس، هو صُهَيْب بن سِنان بن مالك بن النمر بن قاسط، ألمعروف "بالرومي"، الّذي كان عبداً مملوكاً عندما جاء إلى مكّة، فجدَّ واجتهد، وجمع ثروة طائلة، اشترى بها كلّها نفسه من مشركي مكّة، عندما منعوه من الهجرة إلى المدينة.

"عن سعيد بن المسيّب، قال: لمّا أقبل صهيب مهاجراً نحو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتبعه نفر من قريش، فنزل عن راحلته، وانتثل ما في كنانته[٢٨٤]، ثمّ قال: يا معشر قريش! لقد علمتم أنّي من أرماكم رجلاً. وأيم الله! لا تصلون إليَّ حتّى أرمي بكلّ سهم معي في كنانتي، ثمّ أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء. إفعلوا ما شئتم. وإن شئتم دللتكم على مالي وثيابي بمكّة وخلّيتم سبيلي. قالوا: نعم. فلمّا قدم المدينة، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: رَبحَ البَيْعُ أبا يَحْيَى، رَبحَ البَيْعُ أبا يَحْيَى.

ونزلت آية: (وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْري نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ.) (البقرة٢/٢٠٧)[٢٨٥]

٢٨٤ــ إستخرج ما فيها من السهام.

٢٨٥ــ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١، ص ص ٤٣٠-٤٣١.

الجود بالنفس

الجيل الصالح الّذي ربّاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يُضَحِّ بالمال ومتاع الدنيا فقط، بل ضحّى بحياته، وجاد بها من أجل الله والإسلام، ولنستمع إلى قصّة ثلاثة رجال من الجيل الأوّل كيف آثروا بعضهم على أنفسهم، وتدافعوا شربة الماء الّتي كان من الممكن أن تنقذهم من الموت، إلى أن ماتوا ثلاثتهم، رضي الله عنهم وأرضاهم.

"قال ابن الأعرابيّ: استُشهد باليرموك، عِكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وجماعة من بني المُغيرة، فأُتُوا بماء، وهم صرعى، فتدافعوه، حتى ماتوا، ولم يذوقوه.

قال: أُتِيَ عكرمة بالماء، فنظر إلى سهيل بن عمرو ينظر إليه، فقال: ابدأوا بذا، فنظر سهيل إلى الحارث بن هشام ينظر إليه، فقال: ابدأوا بهذا.

فماتوا كلّهم قبل أن يشربوا.

فمرَّ بهم خالد بن الوليد، فقال: بنفسي أنتم!"[٢٨٦]

إنه من المهم أن نُبَيِّن هنا، أنَّ هؤلاء الشهداء الثلاثة الذين آثروا الغير على أنفسهم بتدافعهم الماء حتى يشرب الآخر، ولم يشرب منهم أحد، فاستشهدوا كلهم، كانوا من أكبر أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم والإسلام، لكنهم أسلموا بعد فتح مكة، وحسن إسلامهم، فخرجوا مجاهدين في سبيل الله لتعويض ما فاتهم من نصرة النبي صلى الله عليه وسلم والإسلام. رضي الله عنهم وأرضاهم.

هذه القصة الرائعة تروى بشكل آخر لا بأس من إيرادها أيضاً للموعظة.

٢٨٦ــ ابن عساكر، مختصر تاريخ دمشق، ج ١٠، ص ٢٣٧.

"قال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمٍّ لي، ومعي شيء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمق أسقيته، ومسحت به وجهه. فإذا أنا بـه، فقلت: أسقيك ماءً؟ فأشار، أي نعم. فلمّا هَمَّ أن يشرب، إذا برجل يقول: آه! آه! فأشار ابن عمّي أن أنطلق به إليه، قال: فجئته، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فسمعني آخر: فقال: آه! آه! فأشار هشام، أن انطلق بـه إليـه، فجئتـه، فـإذا هـو قـد مـات، فرجعت إلى هشام، فإذا هو قد مات، ثمّ رجعت إلى ابن عمّي، فإذا هو قد مات."[٢٨٧]
رضي الله عنهم وأرضاهم. ولقد قال فيهم أحد الشعراء:

يَجودُ بالنَّفْسِ إذا ضَنَّ الْبَخِيلُ بها وَالْجُودُ بالنَّفْسِ أقصَى غايَةِ الجُودِ

٢٨٧ــ التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، ص ١٨٠؛ ابن نباتة، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص ٣٧٣؛ الطرطوشي، سراج الملوك، ص ٧٢.